التي أوشك أن يبزغ فجرها بعد طول عناء وانتظار.

في الصباح الباكرحمل القارب العائلة باتجاه أوروبا الحلم، ولأول مرة شاهد ومن معه البحر؛ فرغم ما سمعه عن البحر؛ كانت المرة الأولى التي يراه فيها بشكل طبيعي، ورغم جماله الفتان إلا أنه كان يستشعر أن البحر هو الآخر يحاصره، وبدا كأنه يفر من حصار إلى حصار. كان الأب يستشعر في هذه الأثناء نهاية المأساة على حين لم تخف الأم مخاوفها المستمرة وشكوكها حول سلامة النتيجة؛ لم يبق الكثير، فالوقائع توحي بنهاية المأساة التي جسدتها الأحداث السياسية والعسكرية التي ألقت بظلالها على كافة جوانب الحياة؛ هذا ما كان يردده بعض المتحاورين على ظهر القارب.

مضت ثلاث ليال والقارب الذي أقل العائلة يسير ببطء وحذر متجنبا خفر السواحل بالقرب من كل دولة يمكن أن يمر بمحاذاة مياهها الإقليمية، لم يبق الكثير، ليلة واحدة تفصلنا عن الشواطئ الأوروبية الآمنة، هذا ما كان الأب يكرره باستمرار، طوال الليل، كانت الرحلة صعبة، والتعب قد استبد بالجميع على ظهر القارب الذي يقل فارين باتجاه الأمان، لقد نام الجميع في القارب المكتظ بالعائلات الفارة نحو الخبز الأبيض والحرية الخضراء.

استيقظ مذعورا على صراخ الركاب، الجميع مرتبكون ماذا هناك؟ صاح متسائلا، أجابت الأم بفزع: القارب يكاد يغرق لقد كانت الأمواج العاتية تتلاعب بالقارب كأنه ريشة في مهب الريح، لم يستطع أن يفكر بشيء سوى بيت شعر تردد في خاطره آن ذاك:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه

تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

كان الحدث والواقع أكبر من طاقة الموجودين على ظهر القارب، ولا أحد يمكنه إيقاف العاصفة التي كانت أكبر من آمال المحاصرين بالنجاة.

كان الأمل يحدو الجميع على ظهر القارب بالنجاة؛ حيث كابدوا لساعات طويلة محاولين مقاومة العاصفة التي انتهت بقلب قاربهم رأسا على عقب، كل الأحلام تبخرت والأماني ذابت كما ذابت معاني الأوطان عند المعذبين؛ لم ينج من العاصفة إلا هو، لقد وجد نفسه ممددا على أحد الشواطئ الأوروبية وبجانبه جثة أمه وأبيه، لقد كان المشهد الذي يتكرر يوميا أكبر من قدرته على التعبير أو الوصف. لقد انتهى الجميع وتبددت أحلام الأب بتأمين طبق المهلبية له بعد أن حرمه الحصار منه، لم يمض وقت طويل حتى جاء رجال لينتشلوا الجثث وليحملوه إلى أحد المخيمات الخاصة باللاجئين.

في المخيم كان أول شيء قدم له طبق من المهلبية قذفه بعد تناوله مباشرة، حاول طبيب المخيم إعطاءه الدواء لكن المرض كان قد استفحل في جسده، لم يكن يشتهي أي شيء، وعندما سأله أحدهم في المخيم عن شيء يطلبه، أجاب بصوت مرتجف: لا أريد طبق مهلبية، بل أريد طبق كرامة، ولم يمض وقت طويل حتى سلم الروح إلى بارئها، وعندما فتش المسؤولون في المخيم ثيابه لعلهم يتعرفون على هويته لم يجدوا سوى ورقة كتبها معلم في مدرسته واحتفظ فيها لأمر ما، جاء فيها: «ليس الوطن إلا ذلك الإنسان الذي يعيش فيه».

الكذب

بقلم: سيد بدوي
مصر

عندما أمرني أبي أن أخرج لأحد الجيران وأخبره بأنه ليس بالبيت، احترت، ولاحظ هو ذلك فقال بحزم:

– هيا تحرك.

فقلت في لهجة بريئة:

– لكنك موجود.

ولطمني أبي وقال بغيظ:

– قلت لك اذهب، وأخبره بأني لست موجوداً.

وخرجت والدموع تملأ عيني وأخبرته، ورغم صغر سني آنذاك إلا أنني شعرت بأنه لم يصدقني لكن أملي في أن تشفع لي تلك الدموع التي في عيني كان كبيراً، وعدت وأنا أتحسس خدي وأثر اللطمة التي كان بالإمكان تفاديها.

وبعد قليل وكعادة الصغار كنت قد نسيت، وانخرطت ألعب مع أصحابي، وناداني أبي فذكرني صوته بما حدث، وأجبت في تكاسل، أدرك من خلاله أني مازلت غضباناً فربت على كتفي.

وقال بود:

– لا تحزن!

وغمرتني السعادة حين استعدت ثقتي فيه، وزالت تلك الغبرة التي رانت على صورته في مخيلتي واعتبرت اعتذاره توبة تستوجب الغفران، ولكنه فجعني حين قال.

يجب أن تكون مطيعاً.

يومها لم تطب لي قطعة الحلوى التي أعطانيها وأحسست فيها مرارة لم أعهدها في سابقتها، وحدجته بنظرة أحرجته، وقلت بعتاب:

ـة الأخيرة

– أكذب يا أبي؟

وأربكه سؤالي للحظات، استعاد ثباته بعدها وراودته ابتسامة خجلى وقال:

– بني! هذه ليست كذبة.

واسترسل في تبريرات اعتقد بأنه أرضاني بها، ولأول مرة لا أصدقه.

ومرت أيام أتقنت فيها مهمتي بعدما كررتها مرات، وصرت أؤديها بثبات يوحي بالثقة، واكشتفت بأن الكذب كأي حرفة تتقنه الممارسة، وصرت لا أكذب لصالح أبي وأمي فقط، بل تعديت ذلك لحساب نفسي، ولأتفه مطلب. شجعني على ذلك أن نجاني الكذب من مآزق كثيرة إلا أنني كنت أدرك أنه كالسير على الحبل قد تهوي في أي لحظة مهما أتقنته.

واكتشف أبي ذلك فجأة عندما سألني ذات يوم.

– هل أديت واجباتك؟

وبلا تردد قلت:

– نعم.

– أحضرها.

وأحضرت له واجبات يوم سابق، ولسوء الحظ لا أدري أم لحسنه، اكتشف ذلك وقال بلهجة حاسمة:

– أنت تكذب.

وتلقيت الأمر ببرود، فقد كنت أعلم ذلك، كما تلقاه هو بشكل لم يختلف عني كثيراً، وملأ أذني بنصائح عدة عن الصدق كفضيلة يجب أن أتحلى بها وعن الكذب كرذيلة يجب الإقلاع عنها ثم تنهد وقال:

– «لو كان الكذب ينجي فالصدق أنجى».

– ولا أدري لماذا تذكرت في تلك اللحظة اللطمة التي نلتها منه، ورددت نصيحته في سري «لو كان الكذب ينجي فالصدق أنجى»، ولم أجد فيها في تلك السن الحافز الذي يجعلني أصدق، واعتقدت أن أبي لم يكن يدرك معناها جيداً ورغم حبي لأبي وإيماني بأنه لم يكن يقصدأن يعلمني الكذب، إلا أنني اعتبرته المسؤول الأول عن ذلك، لذا ذهبت نصيحته أدراج الرياح.

– شخص واحد فقط الذي كنت أقف أمامه عاجزاً عن الكذب إنه محمد رفيق الدراسة وصديق عمري.. تلك الأرض النظيفة التي ما إن وطئتها أدركت أنك كنت تخوض في الوحل، ولا أدري سبباً لذلك غير أنه كان صادقاً معي، لذا كنت أراه هناك في السماء وأنا في الأرض، لا وجه للشبه بيننا إلا أنه كان يبقى لي دائماً المنارة التي تعطي التائهين الأمل في النجاة.

وذات يوم كنت معه في المعمل، وحدث أن ضايقني زميل فقذفته بأنبوبة فارغة فتفاداها لتسقط على الأرض وتحدث دوياً.

التفت على أثره المدرس، وسأل في غضب:

من فعل ذلك؟

وكدت أن أنفي التهمة عن نفسي قبل أن تلتقي عيناي بعيني محمد الذي نظر إلي ... كانت عيناه تهمسان في توسل وود لا تكذب.. لا تكذب.

وجدت نفسي أقول بتلقائية.

أنا الذي فعل ذلك.

ولم يتمالك المدرس نفسه فصفعني، ورغم قسوته إلا أنني لم أبك، وتذكرت في نفس اللحظة تلك اللطمة التي نلتها من أبي وأدركت حقيقة لن أنساها طوال حياتي «أن الكذب شاق على الأقوياء رغم أنه أيسر رذيلة يمكن أن تقترفها»، وأفقت على نظرة تقدير من محمد، ويده تهزني فابتسمت يومها وعاهدت نفسي أن لا أكذب.

مرت سنوات وسنوات على تلك الأيام، واليوم فقط أذكرها عندما كدت أن أقع في نفس الخطأ الذي وقع فيه أبي حين قلت لابني بخصوص ضيف ثقيل توقعت قدومه:

لو حضر قل له: إن أبي غير موجود.

وسألني ابني نفس السؤال وكأن الأيام تعيد نفسها:

أأكذب يا أبي؟!

وضحكت وضممته إلي، وقلت:

ممتاز يا أحمد.. كنت أختبرك ولكنك نجحت في الاختبار لأنك قوي والكذب شيمة الضعفاء.

ووجدت أن تلك الكلمات أقرب النصائح إلى فهمه آنذاك، فابتسم بفخر، وقررت أن لا أضعف، وأن أواجه ذلك الضيف، وعاهدت الله أن تكون هي الكذبة الأخيرة.